## (مع شخصيات الفكر والأدب ) الاستاذة صباح عباس آل هاني الحلقة الثالثة (٣)

ثالثاً - الحلقة الثالثة -

تجربتي مع القراءة والكتابة أيها الأعزاء سأخذكم معي في رحلة خاصة مع دولاب الزمن إلى سنواتي الأولى والظروف الطارئة التي عشتها فكونوا بالقرب

١- طفولة خاصة لم يحظْ قريناتي في طفولتهم بما حُظيت به من الرعاية والإهتمام البالغين، وذلك بسبب ما تعرضت له من مرض أقعدني الدار وألزمني الفراش دون حراك لحولين كاملين وأنا دون السابعة من عمري !

وحين عجز الأطباء عن علاجي ومداواة أوجاعي وآلامي ، تحرّك والديّ في محاولة لإنقاذ حياتي من الهلاك وطافوا بجسدي النحيل من بغداد إلى دمشق ومنها إلى بيروت للبحث عن الدواء الشافي لعلتي وسقمي !!

لا زلت أستحضر القلق والوجوم الذي اعتلى وجوه والديّ وجدي بل لا تزال ذاكرتي تحفل بصدى كلمات الإستجداء للأطباء والمختصين لإنقاذ حياتي من خطر الألم والمرض والموت !!

إن هذه الإنعطافة الصحية المفصلية الحرّجة في طفولتي المُبكرة تركت أثارها بشقيها الإيجابي والسلبي على شخصيتي فيما بعد ، فمن جانب أيقظت هذه الحادثة عقلي الصغير لأدرك قيمة الحياة وذلك بإستثمار كل الفرص المتاحة أمامي ، ومن جانب آخر أصبت بحساسية الخوف المفرط من الأشياء والأحداث الذي لازمني ورافقني في جميع فصول حياتي

٢ - صفوى القاع لا القناع

بيئتان قامتا بدور كبير في بنائي وصناعتي ، البيئة الأولى صفوى .. ديرتي التي أحببتها وأحببت أهلها ، فقد لا تكون معروفة وواضحة على خارطة العالم ، لكنها كانت عالمي الكبير الذي أرى من خلاله كل الوجود ، هذه الواحة الغنّاء المُشبعة برائحة الطيبة والمحبة وشجر النخيل والليمون البلدي واللوز والتكي وعطر الريحان والرازقي في حقولها ومشاتلها التي تحيط بها من الشمال والجنواب

كالسِوار حول المعصم ، والغنية بمياهها العذبة كعين داروش وحمام أبو نص وشريعة بيت شبيب والعوسيي وعشرات العيون في جداول مائية تخترق البيوتات لتروي البلدة الهادئة ، ناهيك عن العيون الارتوازية التي يصعب حصرها والتي تتجاوز العشرين عيناً ، تتدفق المياه في قنواتها أينما اتجهت وسرحت ببصرك .

هذه الديرة الخضراء جنتي التي عشت فيها ، فلقد جبت أحياءها وأزقتها وعبثت بترابها ، فعلى أرضها شاركت جدي وجدتي في الزراعة والري والحراثة ورعي الأغنام ورعاية الأبقار

. ديرتي خضراء بأرضها وخيراتها وثمارها ، خضراء بطيبة أهلها وارتقائهم في سلم العلم والفكر والأدب وتميزهم بالأخلاق والكرم وبسط الكف .

إن هذه البيئة النظيفة ساهمت في تكويني وصقلي وأعدها أحد أبرز الملامح الحقيقية لتقوية ساعدي على الكتابة ومساندتي في إمتلاك الثقة بنفسي .

٣- أمي أعظم مدرسة

البيئة الثانية التي ساهمت ولا تزال في إنتاجاتي الثقافية هي أمي ، فمن مرفأ الذاكرة وأرجع بخطواتي ألى الوراء ، إلى البيت الذي تميّز عن غيره بوجود أمي ، المرأة القوية الشجاعة التي قهرت الظروف من حولها ، لقد كانت منفردة في تفكيرها ومواقفها ورفعت شعارها أكون أو لا أكون ! وكانت كما تريد وفوق ما تريد !!

لقد عمِلت بجهد وجد واجتهاد ولم يشغلها عملها في كسب الرزق والحياة بعز وشرف وكرامة عن ملاحظتنا ليس فقط في المجال السلوكي والأخلاقي وإنما في المجال المعرفي والعلمي والسير معنا خطوة بخطوة . لقد صنعت لنفسها موقعاً خاصاً بها وواقعاً مختلفاً عمّا عليه المرأة في منطقتنا ، لقد كسرت الرتابة وكانت المرأة الأولى من بين المئات لتقوم بما قامت به من أدوار ومهام جسيمة وعظيمة .

أمي المدرسة الأولى التي أستمد منها قوة العزيمة وأستلهم منها روح العطاء ، فهي شعلة متوقدة على الدوام ، وإن كان في حياتي إنتاج أو إصدار فبفضل صناعتها وتوجيهها ، إنها ترقب كتاباتي وتحفّزني على الإستمرار والإنتاج دون توقف ، فهذا المناخ العائلي الخاص كان له أكبر الأثر في بناء مخيلتي وحواسي .

٤- خط البداية

إن التماس خيط البداية صعب حقّاً ، فالمهمة ليست سهلة مطلقاً ، فذاكرتي تحفل بالمواقف والأحداث لتلك المرحلة البكر ، وعلى مقاعد الدراسة في المرحلة الإعدادية كنت الصبية الخجولة والمترددة والخائفة ، فكانت لي أولى المحاولات الجادة في صياغة الكلمات حين تقدمت على قريناتي في مادة الإنشاء وبدأ إسمي يلمع في أروقة المدرسة ، فمن الإذاعة الصباحية إلى الكلمات والمشاركات في مجالس الأمهات التي تنظمها المدرسة لتتحرك أصداء مشاركاتي الكتابية إلى كل من حولي من الجيران والأهل يلجؤون لي لكتابة خطابات الإستجداء وطلب العون لبعض المعوزين وذوي الاحتياجات الخاصة وتقديم طلباتهم لبعض الدوائر الحكومية كوزارة الشئون الإجتماعية وديوان المظالم وغيرها ، ثم إتسعت مجالات مشاركاتي لتصل إلى جلسات اللجنة النسائية والفعاليات الثقافية التي تقام في المنطقة . في هذه المرحلة التي استمرت نحو عقد من الزمن كانت الكتابة بالنسبة لي مجرّد هواية أمارسها عند الحاجة إليها .

٥- نبتةٌ لم ترَ النور في مطلع الثمانينات توجهت للدراسة الدينية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية وهي الأعوام الصعبة والقاسية في ظل الحرب الدامية بين العراق وايران . وفي مدينة مشهد المقدسة وبجوار الإمام الرؤوف علي بن موسى الرضا عليه السلام كنت إحدى طالبات حوزة الإمام الباقر العلمية فرأينا شدة الحصار وقسوة الحرب وسوء الأحوال المعيشية وقلة الموارد الأساسية !

كانت قوافل الشهداء يومي الاثنين والخميس من كل إسبوع تجوب الشوارع الرئيسة في عرس كبير بإتجاه مقبرة الشهداء في ترانيم خاصة واجواء بالغة الروحانية والخصوصية من الدعاء والبكاء والعزاء .

هذه المرئيات والمشاهدات كان لها أثرها الكبير في انبعاثي فتفجرت حينها الرغبة في اعماقي للكتابة فبدأت أسطر كلماتي المخنوقة بين أضلعي منطلقة من رحلة السبي الأليمة للسيدة العظيمة السيدة زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين عليهما السلام ودورها البطولي في خط الدفاع عن الإسلام ومواجهة الظلم والبغي والفساد بكل صوره وأشكاله ، وواصلت طريقي في الكتابة حتى أصبح أمام ناظري كتاب متكامل يحكي قصة السيدة زينب المرأة العظيمة وخيوط المأساة الرهيبة التي عاشتها ومواجهتها قوى الباطل بصبرها ومنطقها .

لكن ! للأسف الشديد لم يكن هذا الكتاب ليرى النور يوماً ! لقد ضاع الكتاب في إحدى تنقلاتي من سكن لآخر مع بعض الأغراض الأخرى وضاع معه الجهد ولم يبقى إلا الأسى والضجر والتحسر !

٥- عبثية الهواية وجدية الهوية كانت الكتابة فيما مضى لا تمثل سوى هواية أزاولها بين الفينة والأخرى ، وفي رحلة الإغتراب التي تجاوزت اثني عشر عاماً ، اليوم استعرض أطياف تلك الرحلة الجميلة التي تترك أشعتها الدافئة على حياتي . ثمة علاقة قوية تربط بيني وبين تلك الأجواء ، إنها أجواء شديدة الخصوصية ، بالغة التأثير ، فالمناهج الدراسية والفعاليات الثقافية والبرامج المتعددة كلها تمثل لي نهر متدفق من المعرفة . لقد كانت تجربتي في رحلة الإغتراب مفاتيحي لخيارات عديدة ، ففي منطقة الست زينب عليها السلام القريبة من دمشق العاصمة السورية شاركت بعدد من المقالات في مجلة عفاف التي كانت تصدر في بيروت ، والتقيت بعدها بمجموعة من الكتّاب والكاتبات وحينها فقط وجدت نفسي في الكتابة ، ووجدت سحرها ، وأدركت أهميتها ، ورأيت بأن الكتابة رسالة وكلمة حية باقية لا تموت أبدا ومسؤوليتنا تبلّيغها وإيصالها للآخرين . لقد تحّولت الكتابة من هواية ثانوية إلى همّ حقيقي يشغل فكري طيلة الوقت بُغية إيصال الكلمة الواعية إلى الناس ، وبدأت أتواصل وألتقي في الجلسات الثقافية الحوارية لفريق المجلة ، ولن أكون مُبالغة إن قلت إن التوصيات والملاحظات التي كان يؤكد عليها رئيس التحرير الأخ العزيز الشيخ محمد العليوات حفظه ا ، الدور الكبير في صقل قدراتي الكتابية فيما بعد وكذا توجيه مطالعاتي واهتماماتي

٦- التجربة البكر كتاب الحياة الزوجية مشاكل وحلول ، إصداري الأول الذي رأى نور الشمس عام ١٤١٠ هجرية، ولخوض هذه التجربة موقف أذكره هنا..

في منتصف شهر ربيع الآخر من العام نفسه حُظيت بلقاء أحد الأساتذة والمفكرين في لقاء ثقافي ، وأشار في أثناء حديثه إلى أهمية الكتابة ، وحفّزنا وقتها وشجعّنا على ممارسة الكتابة، ونقل المعرفة للآخرين .

لا أدري ما الذي أحدثّته كلماته الموجزة البسيطة في داخلي من رغبة قوية في التنفيذ وأصرار غير طبيعي على خوض تجربة الكتابة !

لقد قررت في اللحظة نفسها وأنا لم أبرح مكاني ، أن أكتب كتاباً دون تسويف وسأبدأ اليوم وليس الغد بوضع النقاط على الحروف

إن هذا القرار الصائب الذي أتخذته من أبرز القرارات الذكية التي إتخذتها في حياتي !

وبالفعل رسمت هيكلية للكتاب وجدولت الفصول والأبواب وبسم ا وبا بدأت وتوكلت على ا تعالى

وواصلت الكتابة دون توقف .

لقد كان من الصعب الكتابة خلال النهار لزحمة جدولي كأم وطالبة ومعلمة وشغل البيت والأطفال ، فكنت إرقب الليل وأنتظره بحماس كل يوم . وفي أحياء السيدة زينب نادراً ما نجد الكهرباء في تلك الفترة لا سيما ليالي الشتاء والمطر والرياح !!

إلا أنني أكملت طريقي وواصلت الكتابة على ضوء الشموع مُستغلة نوم اطفالي وهدوء المكان لأكمل ما بدأت ولأحقق ما أُريد !

لقد إكتملت فصول الكتاب وتفاصيله ودعّمته وقوّيته بالإستشهادات والأدلة ، فكما ولادة الطفل البكر وفرحة الأم بوليدها الذي تراه للمرة الأولى ، كان احتفائي وفرحتي بكتابي الأول الذي خرج من رحم التحدي والعوائق والضغوط ليرى النور في ٢٧ رجب المرجب في ذكرى المبعث النبوي بإشراق نور الإصرار والتحدي في داخلي وابتعاثي من جديد .. كانت عيون زوجي وأبنائي تلمع بفرحة المولود الجديد !

غمرتنا السعادة وأقمنا الإحتفال بقدومه وشاركني فرحة إصداره الأهل والأحبة والأصدقاء لقد كانت هذه التجربة حافزاً قوياً للإنتاج الثقافي وإعادة تجربة التأليف والكتابة مرة أخرى .

٧- حتى لا يكون الحلم حطاماً التجربة الثانية هي كتاب : الإنحرافات السلوكية .. الأسباب والعلاج الذي صدر عام ١٤١٣ للهجرة وهو كتاب بحثي دراساتي . أما التجربة الثالثة فهي كتاب : حتى لا يكون الحلم حطاماً لقد نقلت بين صفحات هذا الكتاب عُمق التجربة الشخصية الحية التي عشتها لفترة تزيد عن ستة وعشرين عاملا

. بعد قضائي خمس سنوات على هذه التجربة قررت الكتابة حولها ، فهي تجربة خصبة مليئة بالأحداث والمفاجأت في مدينة الرياض مع المئات من الشابات الجامعيات اللاتي يسافرن للتحصيل الدراسي العالي في مدينة الرياض ، وكنت المسؤولة المباشرة عن إدارة هذا المشروع الضخم الحديث التجربة !!

مسؤوليتي تكمن في متابعة شئون الطالبات وحّل قضاياهن المختلفة السكنية والنظامية والأخلاقية والصحية والخدماتية ومتابعة حركة الدخول والخروج والمواظبة والتغيب ، ومتابعة حركة سفرهن من الرياض إلى القطيف والأحساء والعكس ، ومعالجة كافة المشاكل التي تواجههن ، لقد كان عددهن يتجاوز حدود الالف ومائتين طالبة في خمس مباني سكنية . لقد كنت المُؤسسة والمسؤولة والمديرة التنفيذية

للمشروع لكل القضايا الإدارية والتشغيلية . لقد حملت لي هذه التجربة عنصر المفاجأة الذي أدهشني ، فلقد كنت بأمس الحاجة إلى من يشاطرني الرأي وإلى من يتفهم حقيقة ما أعانيه وأواجُهه من مشكلات تبدأ ولا تنتهي مع هذه الشريحة وهذا الجيل المتلون بثقافات متعددة وسلوكيات خاطئة في تلك الفترة الصعبة من حياتي

لقد بدأت أبحر في أعماق التجربة على صفحات الكتاب وأنقل المشاهدات في محاولة مني لمدّ يد العون والمساعدة لهذا الجيل ، والتعرّف على هفواته للبحث عن الوسائل الناجحة للأخذ بيده ومساندته وتقديم كل أنواع الدعم والمساعدة ليكون حلمنا في ابناؤنا قد تحقق ، لا أن يتحطّم ويضيع كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف !!

٨- بين التفاؤل والتشاؤم في أحيان كثيرة أُخْطي خطواتي المُثقلة بإتجاه الكتابة للإفلات من الحزام الحياتي الضاغط ، فأنا اليوم لا أستطيع التوقف عن الكتابة مهما تكن الظروف من حولي قاسية أو ضاغطة .

ما يدفعني الآن للكتابة هو إحساسي بالحياة لان الكتابة تُحررني وترفع الطوق عن روحي

ولكن ! أُصاب أحيانا بالإخفاق وأخرى بالتشاؤم ، فالموضوع الذي أتناوله لا يتناسب مع الفكرة التي في ذهني ومع ما أطمح إليه فيأخذني قلمي في رحلة ضياع وتشتت لأتيه بين الحروف والكلمات دون أن أصل إلى مرادي فقد أحدد الموضوع وأبدأ البحث وأنطلق لكن لا يزيدني ذلك إلا بُعداً وضياعاً كمن يتعذب في رحلة البحث عن صخرة النجاة دون أن يجدها ؟!

وفي أوقات أخرى يشاطرني قلمي في رحلة البحث عن الحقيقة وتُعينني الكلمات في إيصال الفكرة التي أنشدها وأجد نفسي في حالة تواصل إيجابي مع موضوعي ، فأعيش عالمي الخاص ، إنه عالم الكتابة الذي يأخذني في رحلة الإحساس بالحياة وجمالها .

٩- كيمياء الحب والزواج تولّدت فكرة هذا الكتاب لتقديم المزيد من الدعم النفسي والمعنوي والمعرفي للجيل المقبل على الزواج . وفي هذا الكتاب عقدت العزم على كسر الكتابة التقليدية ورسم لوحتي الكتابية بإسلوب مُشوق في محاولة لجذب الجيل الجديد على القراءة والإطلاع لاسيما عندما يتناول الكتاب الحياة الزوجية .

لقد كان الكتاب وصيتي لإبنتي في ليلة زفافها كما فعلت أمامة بنت الحارث في وصيتها الشهيرة لإبنتها ليلة زفافها . لقد إجتهدت ليكون الكتاب وصيتي ورسالتي الصادقة بكل مشاعر الحب الى بناتي واولادي والجيل الجديد في عالمنا الكبير يتوارثوه جيل بعد جيل عبر التواصل الروحي والمعرفي بين الأجيال في نقل التجربة الحية للإستفادة الحقيقية منها .

لقد بدأت أصوغ كلماتي في فترة زمنية قليلة على زفاف إبنتي ، وكانت محاولة شبه مستحيلة ، لكن من قوس الأفق كانت أشعة الشمس الساطعة تلوح لي من بعيد وتخبرني بأنني قادرة على تخطّي المستحيل . والمدهش في الأمر أني وفقت وأنهيت الكتاب مع إكتمال فصوله في ليلة زفافها لتكون سعادتي أكبر وأروع ! ١٠- أنا وقلم الرصاص

العلاقة بيننا قديمة فنحن معاً في الماضي والحاضر . لقد كان رفيقي حين بدأت أرسم الخطوط وأسطّر الكلمات ، ليكون قلم الرصاص شاهداً على رسوماتي وتصوراتي وأحاسيسي

إنه الصديق الذي لا يمل مجالستي ويتحمل الساعات الطوال من الجهد بلا راحة ويصبر على شذبي وضغطي وسهري وسهادي !

إن أبرز ما يشجعني على الكتابة هو قلم الرصاص الذي تعرّض لبري ممتاز ليرافقني فترة أطول . لقد أصبح قلم الرصاص جزءاً أساسياً من إحتياجاتي الشخصية ، فقد أنسى وضع فرشاة المعجون في حقيبة السفر ، لكنني لا ولن أنسى أوراقي وقلم الرصاص ، فهما خير رفيق في سفري ووحدتي وسيبقى الأمر كذلك حتى يفرقنا الموت !